المحاضرة03: المسرح النثري العربي الحديث والمعاصر

لم يعرف المسرح ولا المسرحية بمفهومها المعاصر إلى أن دخلت الحملة الفرنسية مصر« وشرع الفرنسيون في إقامة بعض الأسس التي ترتفع عليها واجهات لمعالم من الحضارة الجديدة، ومن بينها إقامة مسرح لهم في الأزبكية، فكان الشعب المصري يقف حول خشبة ليسترق البصر ويرى ما يجري داخلها »[i].

بل إن الفضل في اقتناص البذور المسرحية من الغرب وزرعها في التربة العربية يرجع إلى ابن صيدا في لبنان ذلك التاجر المغامر المثقف "مارون النقاش" الذي كان مشعلا متوهجا في مجالات الإدارة والتجارة، إلى جانب ثقافته في العربية والتركية والإيطالية والفرنسية[ii].

وما من شك في أن الثقافة التي امتلأت بها جوانحه هي التي حركت لديه النفس المتطلعة إلى كل جديد يتوقع أن يروج في وطنه العربي، كما أن ازدهار تجارته التي كان يقوم في سبيلها برحلات إلى أوروبا ولاسيما إيطاليا جعلته يشاهد بعض المسرحيات والأوبرات فاستهواه ذلك، فعاد منها بزادين؛ زاد التجارة وزاد الفتح المسرحي ذلك أن إيطاليا كانت في القرن التاسع عشر مركز إشعاع فني مسرحي، ولاسيما فنون الأوبرا.

ولأن مارون تاجر متفتح القلب والعين على الفنون، ضم إليه جماعة من أهله وأصدقائه لدى عودته إلى بيروت من رحلته إلى إيطاليا، وأخذ يعلمهم فن التمثيل وانصرف إلى المسرح، ولأنه كان يعرف أنه مقبل على تجربة جديدة فذة، أعد لها عدته وشمر لها عن ساعد الجد في سبيل إنجاحها، وكان وقتذاك اسم موليير (Molieres) يملأ الأسماع في أوساط المثقفين العرب، فمضى يقرأ له مدركا أن تركيب المجتمع الموليري يختلف عن تركيب المجتمع الماروني[iii].

كما عرف كيف يخلق البؤرة التي يلتقي بها محور اهتمام الجماعة البيروتية، فقدم خمس مسرحيات من النوع الكوميدي وهو أصعب أنواع الفنون المسرحية وأرقاها، ثلاثا منها من تأليفه وإخراجه، واثنتين من تأليف أخيه الشاعر المحامي نقولا النقاش، وكانت كوميديا "البخيل" أولها وهي أول مسرحية عربية عام 1847م، ثم تلاها بمسرحياته الأخرى على الترتيب "الشيخ الجاهل 1849م وكذلك "أبو الحسن المغفل أو هارون الرشيد" ثم مسرحيتاه "ربيعة بن زيد المكدم" و"الحسود السليط" عام 1853م[iv].

في هذه المسرحيات الخمس كان مارون النقاش مقتنعا بما هو فاعل، فقد أحضر مادته من الفكر والثقافة الأوروبية، ولكنه صاغها عربية بحيث تلائم المزاج والتركيب الاجتماعي العربي، كما أحس بضرورة تطعيم العمل الأدبي بروح التراث ومزجها بالذوق الحديث المتعارف عليه في زمنه، وهذا الأمر لم يسبقه إليه أحد.

وحينما جاء دوره في الاختيار بين المسرح النثري والمسرح الغنائي الشعري اقتحم الصعب واختار اقتباس المسرح الغنائي الشعري، لأن نفسه كانت أميل إلى الأوبرا التي يخرجونها في جو موسيقي وفي تنغيم وتلحين، وبهذا كان مارون النقاش أحد أركان الثالوث الذي أرسى قواعد الفن المسرحي الجديد في الحياة العربية، ولم يتح للمسرح أن يتنفس في الشام إلا بعد عشر سنوات من وفاته « بعدما أصيب بحمى شديدة في أواخر أيار سرعان ما أودت بحياته في الأول من حزيران عام 1855م بطرطوس، ثم نقلت أسرته فيما بعد جثته إلى لبنان »[v].

لم تنته الحركة المسرحية بوفاة النقاش، فهو الذي مهَّد لها وسواها، وألف فرقته التي أثمرت جهودها المسرحية في بلاد الشام أولا ثم في مصر، لاسيما أن الحدود في القرن التاسع عشر لم يكن لها وجود في البلاد العربية على النحو الذي هي عليه اليوم، ومن هنا فما يجري في بيروت يصل إلى دمشق، والفرق الأجنبية التي تفد على بيروت كثيرا ما تستكمل الرحلة إلى دمشق.

فليس من المستبعد إذن أن يكون الشيخ أبو خليل القباني أحد أركان الثالوث الرائد في الجهود المسرحية العربية في القرن التاسع عشر، هو أبو المسرح الغنائي ومؤسس المسرح في سورية، (ولد سنة 1845م وتوفي سنة 1904م) ولد في دمشق ودرس اللغة والعلوم الدينية والموسيقى والموشحات، وأحبَّ الرقص ونظم الشعر والزجل مبكرا، ثم أولع بالمسرح وانصرف إليه مؤلفا ومخرجا.

لقد كان يمثل مع فرقته في منزل ذويه في دمشق، ثم أنشأ مسرحا عرض فيه بضع روايات غنائية من وضعه وتلحينه، اقتبس حوادثها من " ألف ليلة وليلة"، لكنه صادف عنتا من القوى المتزمتة بدمشق فأصدرت أمرا من السلطان بإغلاق مسرحه، بل لم تكتف بذلك، وإنما أحرقت مسرحه وحاولت أن تكيد له، ولهذا رحل الرجل إلى مصر عام 1884م فلاقى نجاحا ملحوظا، وشاركه العمل الشيخ سلامة حجازي[vi]. فكان « صاحب الفضل في تثبيت أقدام هذا الفن في مصر، والراجح أيضا أنه هو من بذر بذرة المسرح الغنائي في مصر ومهد الطريق للشيخ سلامة حجازي وسيد درويش وغيرهما ممن اشتغل بالمسرح الغنائي هناك »[vii].

مَثَّلَ القباني وأخرج أكثر من ستين مسرحية غنائية له ولغيره، ألف منها حوالي خمس عشرة مسرحية ولم يصلنا منها سوى ثماني مسرحيات وهي؛ رواية "هارون الرشيد مع الأمير غانم بن أيوب وقوت القلوب" وهي تاريخية غرامية أدبية تلحينية تشخيصية ذات خمسة فصول، ورواية "هارون الرشيد مع أنس الجليس" وكذلك رواية "الأمير محمود نجل شاه العجم" و"عفيفة" و"عنترة بن شداد" وروايات ثلاث أخرى وهي "لباب الغرام"، و"حيل النساء"، و"ناكر الجميل"ومعظم هذه المسرحيات مستمدة من الحكايات الشعبية

كما «أن صلة القباني و أسرته بالأصل التركي مكنه من الاتجاه في التراث التركي وكذلك الاتصال بالأدب الأوروبي ولاسيما مسرحيات موليير وراسين ... »[viii].

كان القباني من أوائل من جمعوا بين عدة أعمال تتصل بالمسرح كالتأليف والإخراج وتصميم الديكور وتوزيع الإضاءة المسرحية، ولعله أول رائد مثل المسرحية الغنائية ولحن أغانيها وأداها بصوته في تاريخ المسرح العربي كله [ix]، ولاشك أن هذه المميزات كلها تغفر بعض عيوبه التي سجلها النقاد والمؤرخون ضده مثل كثرة السجع والزخارف اللفظية وحشد المسرح بكثير من الألوان الفنية.

وعليه فإن عبقريته الحقيقية إنما كانت في ابتكاره المسرحية الغنائية (الأوبرات) العربية، ولقد جمع لأول مرة بين الغناء الموروث والأدب العربي والتمثيل في وحدة متكاملة، يلتقي فيها الرقص مع النشيد الفردي والجماعي مع الشعر مع التراث القصصي مع المسرح ليعطيه الحياة، وكان طبيعيا أن تظهر هذه الحركة من دمشقي، لأن دمشق تحمل دائما طابع المحافظة على التراث، الذي حمل مشعله تلاميذ له في سوريا وفي دول عربية أخرى.

لئن كان رائد الحركة المسرحية في بيروت تاجرا وعالما بعلوم التجارة وفنونها، و رائدها في دمشق ماهرا بشؤون القبانة وتجارتها، فإن رائدها في مصر خبير بنفوس الناس وبميدان واسع من ميادين الحياة وهو ميدان الصحافة لاسيما الصحافة الفكاهية الساخرة[x]، وليس من شك أن القاهرة والإسكندرية شأنهما شأن سائر المدن الكبرى في الوطن العربي قد شهدت حركات تمثيلية قامت بها فرق أجنبية، في وقت مبكر من القرن التاسع عشر بل هناك في أعداد "الأهرام" ما يشير إلى وجود شيء من التمثيل العربي في القرن الثامن عشر.

أما الخطوات الراسخة الأولى في طريق الجهود المسرحية فقد قام بها "يعقوب صنوع" بعد حوالي عشرين عاما من الخطوات الأولى التي قام بها النقاش في بيروت، ساعده في ذلك جملة من الظروف التي هيأت له في مصر فقد كان والده مستشارا للأمير أحمد يكن حفيد محمد علي، وهذا ما ساعده على إنشاء مسرح للتمثيل في القاهرة سنة 1870م فَعُدَّ بذلك مؤسس المسرح المصري، وكان يكتب مسرحياته بنفسه ويجمع الممثلين ويدربهم.

كان يعقوب صنوع قريبا من القصر، ولكنه في الوقت ذاته كان ينزع إلى الحرية والتحرر وهو الذي درس في أوروبا ثم غدا مقربا وقوي الصلة بالشيخين الأفغاني ومحمد عبده، ولهذا كان أكثر جرأة من سالفيه "النقاش" و"القباني" في طرح القضايا السياسية والاجتماعية على خشبة المسرح.

ألف وترجم واقتبس ما يزيد عن ثلاثين مسرحية، لم يصل منها سوى سبع مسرحيات كتبت باللهجة المصرية، ويذكر الدارسون منها "آنسة على الموضة"، "الأميرة الإسكندرانية"، "البنت العصرية" "البورصة" "الحشاش"، "الغندور"، "الضرتان"، "الأخوات اللاتينية" ...[xi]. وما من شك في أن هذا الفن

الجديد لقي رواجا كبيرا في مصر، وقد جعله يعقوب يقف على رجلين إلى جانب الصحافة، بل يكاد يستقطب الجمهور أكثر مما يستقطبه الفن الصحفي، لأن أغلبهم لم يكن يقوى على قراءة الصحف غير أن رواد المسرح العربي الحديث "مارون النقاش وأحمد أبو خليل القباني ويعقوب صنوع" قد كانوا في وضع لا يسمح لهم بتعميق نظرهم في التراث ووسائل استخدامه في مسارحهم الناشئة.

لقد سيطرت عليهم جميعا فكرة واضحة قوية هي أن الفن الذي ينقلونه إلى بلادهم العربية هو الشكل المسرحي الوحيد الذي عرفته البشرية، وهو كذلك ممارس ومعترف به في أوروبا، التي كانت آنذاك تبهر أنظار المثقفين العرب بما تقدمه من مظاهر الحضارة المختلفة، ولم يَدُرْ في خلدهم أن هناك شكلا آخر للمسرح غير الشكل الغربي يمكن لهم أن يستخدموه، وأن هذا الشكل موجود بينهم، قابل للتطوير وقادر على الخدمة[xii].

فظل المسرح العربي يقدم أنماطا ثلاثة من المسرح (المسرحية الجادة والكوميدية والغنائية) إما مقتبسة أو مؤلفة تأليفا متهافتا، إلى أن حدث تغيير مهم في الحركة المسرحية العربية وبخاصة في مصر أين كان الخديوي إسماعيل مغرما بتقليد الحياة الأوروبية والإبداع، حيث شجع يعقوب صنوع وأترابه على وضع المسرحيات وإخراجها وتمثيلها، ولقد لقبه بموليير مصر.

كما شجع سليم النقاش عندما وفد إلى مصر في أواخر 1876م، وفي جعبته مسرحيات عمه مارون النقاش على تكوين فرقته والقيام بالتمثيل، وابتدأ عمله في الإسكندرية فقدم مسرحياته وقد أعجب بها المصريون كثيرا مما جعلهم يهتدون إلى شيء مهم وهو ظهور المؤلف المحلي، فقدم فرح أنطون في مصر مسرحيته المعروفة "مصر الجديدة ومصر القديمة" عام 1913م وفيها استخدم شكلا مسرحيا يراوح بين الرواية والمسرحية، ثم توالت نماذج أخرى لمسرحيين آخرين كلهم من مصر منهم إبراهيم رمزي الذي كان له فضل السبق في تأليف المسرحية المصرية العصرية، وواكبه مؤلف آخر في الفترة نفسها هو محمد تيمور الذي أخرج مسرحيات "العصفور في القفص" مارس 1918م، و"عبد الستار أفندي" ديسمبر 1918م و"الهاوية" 1921م وكلها ذات أسس أجنبية واضحة، فرنسية في الغالب الأعم.

ثم يظهر مؤلف مصري ثالث كان له شأن كبير في دعم الحركة المصرية في مجال المسرح واستمرارها واكتسابها احتراما كانت تسعى إليه، كما كان له الفضل في إرساء قواعد الأدب المسرحي وإعلاء شأنه في مصر بل في العالم العربي كله، هو توفيق الحكيم الذي أخرج أولى مسرحياته عام 1919م وكان عنوانها "الضيف الثقيل" وهي للأسف مفقودة، أما أول مسرحية كاملة تصلنا من فنه فهي "المرأة الجديدة" التي ظهرت سنة 1923م [xiii].

لقد أصبح من المألوف أن يتردد اسم توفيق الحكيم كلما تردد "المسرح" في مصر، بل وفي العالم العربي أحيانا ولا جدال في هذه الحقيقة، لأنه أول كاتب يكرس حياته للمسرح دارسا ومؤلفا، كما أنه لم يكن كمن سبقوه من العاملين في هذا الميدان، حيث كان المسرح يملأ عليه خاطره حين يقتبس وحين يستلهم التراث وحين يؤلف.

ووجد الحكيم في السفر إلى باريس منفذا كبيرا واسعا لمطامحه، فقد كان يتردد على دور السينما ويتشابك مع أهل المسرح، فيوسوس له المسرح هذا الجو الساحر المضيء بالحماس، وبهذا تفتح له باريس ذراعيها بلا تحفظ فتمنحه الموسيقى الكلاسيكية الرائعة والمسرح الحر بديكوراته ونصوصه وتقاليده ونقده وجمهوره، فكان يجمع أعقاب العلم من كل مكان[xiv].

لقد ساعدت هذه التجارب الواسعة التي خاضها الحكيم في تنوع الأشكال الفنية التي استخدمها ليعبر بها عن ذاته و أفكاره[xv]. بيد أن شغفه بالمسرح جعله يؤلف في هذا المجال أكثر من غيره، ولقد صنف إنتاجه المسرحي في مجالات أربعة، فأما المجال الأول فيتمثل في المسرح الذهني ويندرج تحته مسرحيات "أهل الكهف" (1933م) "شهرزاد" (1924م)، "بجماليون" (1942م)، "سليمان الحكيم" (1949م) "الملك أوديب" (1949م)، "ايزيس" (1955م)، "رحلة إلى بغداد" (1958م) و"السلطان الحائر" (1961م)، وأما المجال الثاني فيتمثل في مسرح المجتمع ويندرج تحته عدد من المسرحيات القصيرة والطويلة منها "حياة تحطمت"، "الخروج من الجنة" "رصاصة في القلب"، "العش الهادئ"، "الأيدي الناعمة" و"الصفقة".

فيحين اختص المجال الثالث بالمسرح المنوع وهو أشبه بمقالات مسرحية جاءت في صورة حوار، كان ينشرها في الصحف، وقد جمعها في مجلد واحد عام 1955م، ويبقى هذا المجال ممثلا في تجاربه في الأساليب المسرحية المستحدثة وهو في مسرح اللامعقول يندرج تحته" يا طالع الشجرة"، "رحلة صيد رحلة قطار"، ولقد جمع الرحلتين في كتاب واحد هو" رحلة الربيع والخريف" عام 1964م[xvi].

بهذا كان الفضل لتوفيق الحكيم في إرساء قواعد الأدب المسرحي في الحياة العربية، كما وسَّع في آفاق التأليف المسرحي من خلال المجالات الأربعة السابقة، بعد أن كان ضيقا ومحدودا، ثم انتقل المسرح بعده فأصبح فنا جماعيا ولم يعد جهودا فردية مبعثرة هنا وهناك، لقد أصبح المسرح والعمليات المسرحية ضرورة من ضرورات الحياة الإنسانية المعاصرة، فتمثلت له مدارسه واتجاهاته، وأصبحنا نقرأ عن مسرح يوسف إدريس كما نقرأ عن مسرح لطفي الخولي والثورة الفكرية التي يدعو لها، ونتتبع الواقع والرمز في مسرح سعد الدين وهبة ونتعرف إلى الاتجاه المسرحي لألفريد فرج ولعبد الرحمن الشرقاوي، ونشطت حركة نشر

الأعمال المسرحية في مصر، ونشأت الدراما في التلفزيون وظهر المسرح المدرسي، ومسرح الأطفال والمسرح الشعري وغيرها[xvii].

امتد هذا النشاط إلى سائر البلاد العربية وأنشئت فيها المسارح، وقامت تجارب مسرحية رائدة في لبنان و سوريا والكويت والعراق والجزائر، وفي سائر البلاد العربية، ولهذا أصبح واضحا لدى الجماهير المثقفة أن المسرح كان حقيقة اجتماعية في ذاته، والمجتمع في أشد الحاجة إليه.